الهجرة إلى رمضان

لتربية النفس واستعادة القرآن

فايز بن سعيد الزهراني

الهجرة إلى رمضان

لتربية النفس واستعادة القرآن

فَايز بن سَعيد الزّهرَاني

١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله، وعلىٰ آله وصحبه ومن والاه، وبعد..

حين زهد قوم في التزود بالطعام لأسفارهم توهمًا منهم أنَّ ذلك تقللٌ من الدنيا وتوكلٌ علىٰ الله تعالىٰ؛ أمرهم القرآن بالكف عن هذا الفعل، فقال تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[البقرة:١٩٧]. والتزود حمْل طعامٍ ومالٍ يكفيان المسافر حتىٰ يصل إلىٰ مستقره.

لكنه تعالىٰ ذكَّرهم بالتزود للآخرة، فإن الطريق إلىٰ الآخرة طويل، ويحتاج المسافر فيه إلىٰ زاد يكفيه ويوصله إلىٰ مبتغاه، ولا زاد يكفي في طريق الآخرة إلا التقوىٰ؛ فهي خير الأزواد وأجلُّها وأعظمها، وهي التي ترفع الإنسان في درجات الجنة وتنجيه من الانزلاق في دركات النار، بعد رحمة الله

وتوفيقه. قال السعدي: (وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وأخراه فهو زاد التقوىٰ، الذي هو زادٌ إلىٰ دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة وأجلِّ نعيمٍ دائمٍ أبداً، ومَن ترك هذا الزاد فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من الوصول إلىٰ دار المتقين)[١].

وفي هذه الورقات سنتناول -بإذن الله- موسماً مهماً من مواسم التزود بالتقوىٰ، وهو موسم رمضان المبارك، شهر القرآن، لا أتحدث فيه عن ماهية الصيام وفضله رغم أهميتها، وإنما أتحدث عن تربية النفس في رمضان والاستفادة من القرآن، والله المستعان وعليه التكلان.

وحين اخترت عنوان «**الهجرة إلىٰ رمضان**» لم أقصد بها انتقالًا زمانيًا، فالناس صائرون إلىٰ رمضان لمن شاء الله بقاءه منهم، وإنما قصدت هجرة روحية داخلية؛ هجرة من الغفلة إلىٰ اليقظة، ومن الآثام إلىٰ الطاعات، ومن الانشغال بالدنيا إلىٰ التعلق بالقرآن. فالهجرة هنا مشروع قلب وسلوك يتهيآن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/١٨٤.

لاستقبال الشهر المبارك، وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**المهاجر من هجر ما نهىٰ الله عنه**»[1].

المؤلف

غفر الله له ولوالديه

٩ جمادىٰ الآخرة ١٤٤٧هـ

(١) البخاري (١٠).

شهر استثنائي

لقد أكرم الله عباده بمواسم وأوقات يستطيعون فيها أن ينالوا منها أفضل الزاد وأكرمه وأحسنه، مع أنها قصيرة في الزمن، ثم علَّمهم سبحانه كيف يغتنمون هذه المواسم والأوقات ليتحصلوا منها علىٰ خير الأزواد وأبركها. ويأتي علىٰ رأسها شهر رمضان المبارك، وهذا ما جعل نبينا ﷺ يقول: «**رغم أنف رجلٍ؛ دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أنْ يغفر له**»(١). إذ كيف للإنسان أن يَرد الماء الزلال ثم يشرب علىٰ القذىٰ! وكيف للإنسان أن يزهد في صفقة سريعة الأرباح عظيمة المغانم لأجل متعة يمكن تأجيلها ومكاسب ربما لا يدركها! ألا يستحق هذا أن يكون راغم الأنف قليل الحظ غبي التوجُّه!

---

(١) سنن الترمذي (٣٥٤٥).

لقد أراد الله تعالىٰ قدراً وشرعـاً أن يكون رمضان شهراً استثنائيـاً من بين الشهور. فهو الشهر الذي نزل فيه القرآن العظيم، قال تعالىٰ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[البقرة:١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدْر:١]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣﴾ [الدخان:٣]، ففيه نزل كتاب الله تعالىٰ كاملاً إلىٰ السماء الدنيا، قال ابن عباس: (أُنزل القرآن جملةً واحدة علىٰ جبريل في ليلة القدر، فكان لا ينزل منه إلا بأمر)[١]. فاختار الله تعالىٰ شهر رمضان ظرفـاً زمانيـاً لنزول القرآن.

بل هو الشهر الذي كانت تنزل فيه الكتب الإلهية علىٰ الأنبياء، فعن واثلة بن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال: «**أُنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأُنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأَنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان**»[٢]. ولذلك

---

(١) جامع البيان ٣/٤٤٧.

(٢) أحمد (١٦٩٨٤) وحسنه الألباني في الصحيحة (١٥٧٥).

عظم شرف رمضان، فتأمل اقترانه بتنزل الوحي الإلهي علىٰ مدار العصور والقرون، واختلاف الأمم والبقاع.

وهو الشهر الذي فرض الله صيامه علىٰ هذه الأمة، بل فرض صيامه علىٰ جميع الأمم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣]، قال البيضاوي: (يعني الأنبياء والأمم من لدن آدم ﷺ)[١]. فتأمل اقتران هذا الشهر العظيم بعبادة الصيام علىٰ مدار العصور والقرون، واختلاف الملل والشرائع.

وهو الشهر الذي تتغير فيه بعض معالم الخلق المعهودة، كرامةً من الله للمؤمنين به القائمين بحقه، فتغلق أبواب نار جهنم، وتفتح أبواب الجنة، وتقيد الشياطين فلا يستطيعون كيداً، قال النبي ﷺ : «**إذا دخل رمضان فُتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين**»[٢].

---

(١) أنوار التنزيل ١/١٢٣.

(٢) البخاري (٣٢٧٧).

إن الكون -في شهر رمضان- يتسق مع فضائله، ويرسم لوحة معنونة بالرحمة، الرحمة التي بها تفتح أبواب الجنة وتغلق أبواب النار وتصفد الشياطين، والرحمة التي بها يتراحم الناس بينهم فيحنون علىٰ بعض ويجودون علىٰ بعض وتفيض أرواحهم لطفًا وسكينة وعطفًا أكثر مما كانوا عليه قبل رمضان.

فأي منحة أعظم وأي كرامة أجل وأي أرباح أيسر من دخول رمضان عليك وأنت صحيح معافىٰ؟

وأي فرصة أكبر للاستزادة من الأجور والاستكثار من الحسنات والفوز بالمغفرة الإلهية والسعادة الأبدية من هذه الأيام المعدودات؟ عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله أنه سمع من يثق به من أهل العلم يقول: إن رسول الله ﷺ أُري أعمار الناس قبله، أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مِثل الذي بلغ غيرهم في طول العمر،

فأعطاه الله ليلة القدر، خير من ألف شهر(١). لذلك قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦].

وكما أراد الله تعالىٰ شهر رمضان شهراً استثنائيـًا بين شهور العام، فإن الواجب علىٰ المؤمن أن يجعله شهراً استثنائيـًا في عامه، فيتخذ له برنامجه الخاص بهذا الشهر، البرنامج الذي يحقق فيه إرادة الله الشرعية، ويحقق فيه مقصود الصيام الأعظم وهو التقوىٰ، إذ لا ينبغي أن يدخل شهر رمضان علىٰ المؤمن، ثم ينقضي، دون أن يترقىٰ فيه، ودون أن يكون له برنامجه الخاص فيه، والذي يتفرد فيه عن سائر الشهور. والمغبون هو من تُعرض عليه الهدايا والأرباح الكثيرة في وقت وجيز؛ ثم هو ينشغل عنها ويزهد فيها، ولا يبذل من جهده ووقته شيئـًا لنيلها والتزود منها.

والتقوىٰ مقصود الصيام، فالغاية من هذا الشهر بكل

---

(١) الموطأ (١١٤٥).

فضائله وأعماله أنْ يتحصل المؤمن علىٰ التقوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾ [البقرة:١٨٣].

والتقوىٰ أمر قلبي يفيض علىٰ السلوك فيظهر عليه، ذلك أنَّ التقوىٰ هي دخول القلب في إجراء إصلاحي يتهذب بها وتصلح أحواله ويجتمع همه علىٰ مراد الله تعالىٰ، ويلقي عن القلب تلك الشوائب والعلائق التي حالت بينه وبين رؤية أنوار الوحي، ويزيل عنه ما استطاع من العوائق التي أعاقت سيره إلىٰ الله، فيستحيل هذا الإجراء الإصلاحي القلبي إلىٰ سلوك صالح وعبادات خالصة وقربات متقبلة. والتقوىٰ هي استقامة القلب علىٰ التوحيد، وإقبال النفس علىٰ الله، والهروب من فِخاخ الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، ودوام المجاهدة الروحية والتوبة النصوح.

والسؤال: كيف يصبح الإنسان في شهر رمضان بهذه التقوىٰ المأمولة؟

والجواب -وبلغة سهلة- أن يكون في شهر رمضان أكثر تعبداً لله تعالىٰ من غيره من الشهور، فيزيد في طاعاته لله كمـًا ونوعـًا بالقدر الذي يجعل شهر رمضان بالنسبة إليه شهراً مختلفـًا عن سائر الشهور قبله، فإذا كان مقصراً في الصلاة المفروضة قبل رمضان أصلح ذلك القصور في رمضان، وإذا كان منضبطـًا في أدائها في الجماعة قبل رمضان جاهد نفسه في التبكير إليها فيه، وإذا كان مفرطـًا في السنن الراتبة قبل رمضان أتمها فيه، وإذا كان متصدقـًا قبل رمضان زاد من صدقاته وإحسانه فيه، وإذا لم يكن منضبطـًا في تلاوة القرآن قبل رمضان داوم علىٰ قراءته فيه في كل يوم فيه، وإذا كان له ورد يومي من القرآن قبل رمضان زاد في ورده فيه... وهكذا في سائر العبادات.

إن هذا التحسُّن في الاهتمام بالعبادات يطبع أثره في قلب الصائم، فيطهره من الأدواء والعلل، ويجعله اقرب علىٰ الله تعالىٰ لما يمتلئ به من الذكر والمراقبة والاهتمام بالقربات.

هذا مقتضىٰ التقوىٰ. والتقوىٰ محلها القلب، كما في

الحديث الذي يرفعه أبو هريرة ﷺ إلىٰ النبي ﷺ[1].

ثم إن علىٰ المؤمن في رمضان أن يعمد إلىٰ أربع عبادات -سوىٰ الصيام- فيجعلها في أولويات أعماله، ويمحور عليها برنامجه اليومي، ويلتزم بالمواظبة علىٰ أدائها، باعتبارها الثمن الذي عقده مع الله تعالىٰ في الفوز بالمغفرة الرمضانية.

أولها: تلاوة القرآن. سواء كان ذلك في صلاة أو خارجها، وسواء كان ذلك غيباً أو قراءة من المصحف، وسواء كان ذلك حدراً أو بترسل، فإن شهر رمضان هو شهر القرآن.

ولذا كان جبريل يدارس نبينا ﷺ كل رمضان، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (كان النبي ﷺ عليه وسلم أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتىٰ ينسلخ، يعرض عليه النبي ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير

---

(١) مسلم (٢٥٦٤).

من الريح المرسلة)[1].

وهذا الأثر السلوكي من الجود والسماحة والكرم ناتج من نواتج التقوىٰ والتأثر بالصيام وتلاوة القرآن، فإنهما معـًا يحدثان في القلب أثراً كبيراً، فالصيام يطهر القلب، والقرآن ينوره ويعطره، فيصبح كالمشكاة التي وضع فيها مصباح يزهر. فلله قلوب التلائين لكتاب الله تعالىٰ في رمضان! ما أبهاها وأحلاها!

وثانيها: قيام الليل. سواء كان ذلك في صلاة التراويح أو بغيرها، وسواء كان ذلك جماعة أم منفرداً، فإن ليالي رمضان مباركة معظمة. عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه**»[2]. وقيام الليل صلاة وقرآن يتلىٰ ودعاء وتسابيح يرتقي بها المؤمن بروحه ووجدانه في مصلاه أو في المسجد، فهو في حضرة الرب جل جلاله يناجيه وتلذذ بسماع كلماته، فيعقل المفاهيم ويتعلم

---

(١) البخاري (١٩٠٢) ومسلم (٢٣٠٨).

(٢) البخاري (٢٠١٩) ومسلم (٧٥٩).

صفات إلهه وأسمائه ويتعرف أفعاله وسننه، فيخرج من صلاته بارتقاء إيماني وعلمي ونقاء وجداني. ويقترب من ربه بالسجود فيعظم أجره وتقوىٰ صلته بالله تعالىٰ.

وثالثها: الإكثار من الدعاء. في أوقات الإجابة وفي سائر يومه، فإن الله ذكر الدعاء في آيات الصيام احتفاء بذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[البقرة:١٨٦]. ولأن النفس المتعبدة في رمضان تكون أقرب إلىٰ الله تعالىٰ، فمن المعيب أنْ تفوت علىٰ نفسك طلب حاجاتك بين يدي الكريم، وقد ورد في الحديث الذي يرفعه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث دعوات لا تُردُّ؛ دعوة الوالد، ودعوة الصائم، ودعوة المسافر**»[١].

وهذه تحفة قدسية ونفحة ربانية يكرم الله تعالىٰ بها الصائمين، علىٰ أن ذلك ينبغي أن يُستحضَر معه موانع إجابة

---

(١) البيهقي في الكبرى (٣٤٦٣) والألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٩٧).

الدعاء، لأنه يرد في بعض الأحيان علىٰ عقولنا سؤال: لماذا ندعو لا يستجاب لنا؟ وهو اعتنت الشريعة الرحيمة بالإجابة عنه، والعجيب أننا كثيراً ما نعتني بأسباب الإجابة ونتحرىٰ أوقاتها وكيفياتها، لكننا قليلاً ما نعتني بموانع إجابة الدعاء، ومن فقه الدعاء أن نعلم ماهي الحجب التي تمنعنا من الإجابة.

ونظرت فوجدت أهم الحجب المانعة من قبول الدعاء في عصرنا حجابين:

- **الحجاب الأول: شوائب المال**

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾[المؤمنون: ٥١]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[البقرة: ١٧٢]، **ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر يمد يديه إلىٰ السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي**

بالحرام، فأنىٰ يستجاب لذلك»[١].

وإنما قلت «شوائب المال» ولم أقل «أكل الحرام» لأننا لا نتعمد أكل المال الحرام، لكن قد يقع منا التساهل في نقائه من شوائب المال، ففي بعض أجزاء القروض البنكية والبطاقات الائتمانية والشراء عبر بعض القنوات المالية والأسهم وغير ذلك، وكنقص العمل مع استيفاء الأجرة والتأولات وغيرها، ففي كل ذلك شوائب قد تحجب عنا القبول الإلهي، نسأل الله المغفرة والعصمة.

- **الثاني: ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**

عن حذيفة بن اليمان ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر؛ أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**»[٢]. فتأمل كيف ضعف دورنا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر! وهناك موانع أخرىٰ

(١) مسلم (١٠١٥).

(٢) أحمد (٢٣٣٢٧) والترمذي (٢١٦٩) وقال: حديث حسن.

تتطلب فقهـًا وفهمـًا وعملاً.

ورابع العبادات: الصدقة. فإن الطاعات من شأنها أن تبعث في النفس حب الإحسان والعطاء والجود، وتولد في النفس الكرم والسماحة، وكما رأيت في أثر ابن عباس السابق جود نبينا ﷺ حين يعرض القرآن علىٰ جبريل عليه السلام.

تعـوَّد بسْطَ الكفِّ حتىٰ لو انَّه ثنـاها لِقبضٍ لم تُجبه أنامـلُهْ
تـراهُ إذا مـا جئته متهـلِّلاً كأنَّـك تعطيه الذي أنت سائلُهْ
هو البحر من أي النواحي أتيته فَلُجَّته المعروف والجودُ ساحلُهْ
ولو لم يكن في كفِّهِ غيرُ روحهِ لجـاد بها . فليتقِّ الله سائـلُهْ

ومن الجود المندوب في رمضان: تفطير الصائمين، عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من فطر صائمًا كان له مثل أجره، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئًا**»[1].

فهذه أربع عبادات جاءت النصوص بالتصريح بفضلها في

---

(١) الترمذي (٨٠٧) وقال: حسن صحيح.

شهر رمضان، فقل لي بربك هل ثمة هدي خير من ذلك يقربك من الله ويرفع درجاتك ويصلح نفسك ويهذب روحك؟

وفي الجانب الآخر؛ علىٰ الصائم أن يحجم عن الخطايا في رمضان بأكثر من إحجامه قبلها، والنبي ﷺ قال: «**اتق المحارم تكن أعبد الناس**»[1].

قال ابن رجب: (واعلم أنه لا يتم التقرب إلىٰ الله تعالىٰ بترك هذه الشهوات -المباحة في غير حالة الصيام- إلا بعد التقرب إليه بترك ما حرمه الله في كل حال؛ من الكذب والظلم والعدوان علىٰ الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» خرجه البخاري[2]. وفي حديث آخر: «**ليس الصيام من الطعام والشراب، إنما الصيام من اللغو والرفث**»[3] قال الحافظ أبو موسىٰ المديني: هو علىٰ شرط

(١) الترمذي (٢٣٠٥).

(٢) (١٩١٤).

(٣) المستدرك (١٥٨٣) وقال: صحيح على شرط مسلم.

مسلم.

قال بعض السلف: أهون الصيام ترك الشراب والطعام. وقال جابر: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذىٰ الجار، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء.

إذا لم يكن في السمــع مني تصــاونٌ
وفي بصري غضٌّ، وفي منطقي صمتُ
فحظي إذاً من صوميَ الجوعُ والظما
فإن قلتُ إني صمت يومي فما صمتُ

وقال النبي ﷺ: «**رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر**»[(١)][(٢)].

ومن التقوىٰ في رمضان أن يقلل جداً من التعرض

(١) أحمد (٨٨٥٦).

(٢) لطائف المعارف ص٢٩١.

للمواطن التي تتخللها الخطيئة كمواقع التواصل الاجتماعي والقنوات الفضائية والأسواق ومجالس اللغو، وأن يكبح جماح النفس عن ورود تلك المواطن، فإن هذا من التقوىٰ التي يتربىٰ عليها المؤمن في رمضان.

ولا بد هنا من وقفة حازمة مع «**الشاشة**». شاشة الجوال، وشاشة القنوات الفضائية المنحرفة. فقد امتلأت هذه الشاشات بمشاهد العري والسفور وقلة الحياء، والمجاهرة بالخطايا والموبقات، باسم «**الفن**» تارة، وباسم «**اليوميات**» تارة أخرىٰ، وكأنه يجوز للإنسان في حالة الفن واليوميات ما لا يجوز له في غيره. وكلها آثام موجبة لغضب الله وعقابه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولسنا بصدد الحديث عن هذه المواطن المغضوب عليها، وإنما قصدت إلىٰ وجوب البعد عنها، لا سيما الصائم الذي امتنع عن المباحات ليرضي ربه، فكيف يرِد تلك المواطن الآثمة! لا شك أن ذلك مما يخرق الصيام ويفسد مقاصده ويمحو محاسنه.

وفي قصة جريج العابد عبرة، ففي حديث الثلاثة الذين تكلموا في المهد عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**وكان في بني إسرائيل رجل يقال له: جريج. كان يصلي فجاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللهم لا تمته حتىٰ تريه وجوه المومسات. وكان جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة وكلمته فأبىٰ، فأتت راعيًا فأمكنته من نفسها، فولدت غلامًا، فقالت: من جريج. فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبُّوه، فتوضأ وصلىٰ، ثم أتىٰ الغلام، فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي. قالوا: نبني صومعتك من ذهب، قال: لا، إلا من طين**» الحديث[1].

والمقصود التأمل في كون النظر إلىٰ وجوه المومسات الفاجرات عقوبة في حد ذاته، عافاكم الله، في كيف إذا كان عادة يومية لدىٰ المسلم! وكيف أن يكون جزءاً من برنامج الصائم! وأنىٰ له بتحصيل التقوىٰ وإدراك مقاصد الصوم.

علىٰ الصائم -بل المسلم- أن يأخذ نفسه بالعزيمة في

(١) البخاري (٣٤٣٧) ومسلم (٢٥٥٠).

رمضان، وأن يقلع عن ما كان يتساهل فيه قبل رمضان، ليسلم من الآثام وإفساد عباداته وآخرته.

وربما احتاج الصائم -بعد اللجوء إلىٰ الله في ذلك- إلىٰ عمل بعض التقنيات المعينة علىٰ طهارة صومه بما شاء من أفكار، ثم هو يلجأ إلىٰ الله مرة أخرىٰ في أن يعينه علىٰ ذلك.

ترميم النفس

فيما سبق تحدثت عن «التقوىٰ» المقصد الأعظم من رمضان، لكننا هنا نريد أن نتوغل نوعـاً ما في النفس من داخلها، لنتبين أثر الصيام عليها في حركتها وانفعالاتها.

فبينما الإنسان يسعىٰ في هذه الدنيا لاهثـاً خلف لعاعتها، مستكثراً من ملذاتها، وقد تمزقت همومه وتشعبت روحه في أوديتها، فناله من الأذىٰ والتشوهات التي تفسد عليه آخرته وتشرخ صروح الإيمان في صدره، بينما هو كذلك إذْ هلَّ هلال رمضان مؤذنـاً بالعودة إلىٰ الذات وترميمها وإصلاح ما تهشَّم منها، من خلال عدد من المقاصد التربوية التي يصنعها رمضان في نفوس الصائمين، والتي بها نستطيع القول بأن مقصد التقوىٰ تحقق في المؤمنين.

المقصد الأول: ضبط النفس، وأطرها علىٰ ما ينفعها، وسوقها إلىٰ ما تمليه المصلحة الشرعية. قال تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ [البقرة:١٨٧].

هذه الحدود تصنع ضبط النفس، فالصائم يجتنب شهوة الأكل والشرب والنكاح في نهار رمضان، اجتنابـًا حازمـًا ومحدداً بوقت. وهو يستطيع خرق هذا الامتناع دون علم أحد، إلا أن شعور التعبد لله يلجمه عن اقتراف الممنوع، فهو في الحقيقة يفعِّل نظامـًا للمراقبة الداخلية في نفسه، ويجعل من نفسه علىٰ نفسه رقيبـًا حازمـًا.

وهذا معنىٰ عظيم من معاني التقوىٰ، قال ابن القيم: (إن

الصائم لا يفعل شيئًا، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثاراً لمحبة الله ومرضاته)[1].

ثلاثون يومًا يتعود فيها المؤمن علىٰ الالتزام الموقوت بعدد من العبادات: الصلوات المفروضة وقيام الليل والصيام والإفطار والدعاء وتلاوة الورد القرآني وسماعه خلف الإمام، وما يتبع ذلك من العادات كأوقات التزين والتطيب والنوم والراحة ونحوها. أنت في معسكر تربوي تتدرب فيه علىٰ الانضباط والالتزام. وتلك فضيلة إسلامية سامية.

المقصد الثاني: تأجيل الرغبات وقوة الإرادة. فإن النفس تميل إلىٰ تلبية رغباتها فوراً، وذلك حين تظن أنها محتاجة إلىٰ ذلك، فتميل إلىٰ صنوف الطعام والشراب والنكاح واللهو والراحة والاسترخاء وتناول المحبوبات. لكنها حين يدخل شهر رمضان عليها، فإن أولوياتها تختلف، فتزدحم الواجبات مع الرغبات، فلا تجد نفس المؤمن مناصًا من تأجيل الرغبات

---

(١) زاد المعاد ٢/٢٧.

إلىٰ حين الإفطار، أو إلىٰ ما بعد رمضان، أو بعبارة أخرىٰ: لا تجد بداً من تأجيل الرغبات إلىٰ بعد إتمام الواجبات، لأنها مشغولة بواجبات مؤقتة آنية لا يصلح معها التأجيل، كالصوم وقيام الليل والتزامات الورد القرآني والدعائي ونحوهما. قال تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ويتعود المؤمن شهراً كاملاً علىٰ هذه الفضيلة النفسانية، فتتقوىٰ إرادته كالعضلات تتقوىٰ بالتدريب، حتىٰ تكاد أن تكون قوة الإرادة فيه مَلَكة وسجيَّة، لا سيما إذا استمر علىٰ هذه الفضيلة بعد رمضان، ويكون بذلك استطاع -بتوفيق من الله- أن يخرج من رمضان بتربية ذاتية جيدة.

المقصد الثالث: الخلوة بالله تعالىٰ. فإن الخلوة دواء القلوب والأرواح، ومفتاح الولوج علىٰ ساحة الكريم سبحانه، لا سيما في الليل.

والخلوة وقت يخصصه المؤمن للانفراد بنفسه دون الناس، بغية ذكر الله تعالىٰ، وتلاوة كتابه، وطلبه الحاجات المختلفة، والبكاء علىٰ اقتراف الذنوب والتفريط في الكثير من الطاعات، والتفكر في الذنوب السالفة والمآل ووحشة القبر وأهوال الآخرة، والإقرار بين يدي الله بضعفك ومحبتك له وخشيتك منه وتعظيمك له. قال تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[الأعراف:٥٥].

وقت الخلوة بالله تعالىٰ له مفعول عجيب في تهذيب النفس وإصلاح تشوهاتها وكسر غرورها ونبذ أوهامها ووقوفها علىٰ الحقائق، حقائق النفس وأخلاقها وأدوائها وأعمالها. ولذلك شرع الله تعالىٰ الاعتكاف في عشر رمضان الأخيرة في المسجد، حاصاً في التقلل من علائق الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾[البقرة:١٨٧]. ولو بعضها، ولو بعض الوقت فيها، فإن رمضان هو أفضل وقت لهذه الخلوة. وأما من لم يتمكن من الاعتكاف فلا أقل من أن يجعل لنفسه في بيته ساعة أو ساعات يخلو فيها متعبداً متفكراً متخشعـًا مطرقـًا رأسه باكيـًا،

ذاكراً وتاليـًا وداعيـًا.

وقد جعل ابن القيم رحمه الله الخلوة بالله واحدة من الأسباب الجالبة لمحبة الله تعالىٰ، فقال: (الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه. ثم ختْم ذلك بالاستغفار والتوبة)[1].

والخلوة جزء من رياضة الروح التي مارسها الناس منذ القدم، حتىٰ نبينا ﷺ لم يفته التحنث في غار حراء لوحده قبل نزول الوحي عليه، فلما جاء الإسلام أرشدنا إلىٰ الطرق المشروعة في الخلوة بالله.

المقصد الرابع: تنقية الروح والبدن من الآفات ومداواتهما من الأسقام.

فالإمساك عن الطعام والشراب مفيد للبدن، وقد قال طبيب العرب الحارث بن كلدة: (الأزم دواء) يعني الإمساك

---

(١) مدارج السالكين ٣/١٨.

عن الطعام والشراب[1]، فجعل الله لنا برنامجاً كثيفاً ومتوالياً في الحمية الغذائية، رحمة بأجسادنا التي أنهكناها بتخليط الطعام والشراب، وبما ينفعها وبما يضرها.

كما أن الإمساك عن الطعام والشراب مفيد للروح في دفعها نحو التخشع والتفكر والتدبر والارتقاء من الثقلة الأرضية إلىٰ المدارج العلوية، وسيكون لهذا الإمساك المشروع تأثير نافع في عبادات المؤمنين في شهر رمضان، في تلاوتهم لكتاب الله وقيامهم الليل ودعائهم واعتكافهم.

قال ابن القيم: (الصوم جُنة من أدواء الروح والقلب والبدن، منافعه تفوت الإحصاء، وله تأثير عجيب في حفظ الصحة، وإذابة الفضلات، وحبس النفس عن تناول مؤذياتها، ولا سيما إذا كان باعتدال وقصد في أفضل أوقاته شرعاً، وحاجة البدن إليه طبعاً.

ثم إن فيه من إراحة القوىٰ والأعضاء ما يحفظ عليها

---

(١) زاد المعاد ٤/١٠٨.

قواها، وفيه خاصية تقتضي إيثاره، وهي تفريحه للقلب عاجلاً وآجلاً، وهو أنفع شيء لأصحاب الأمزجة الباردة والرطبة، وله تأثير عظيم في حفظ صحتهم.

وهو يدخل في الأدوية الروحانية والطبيعية، وإذا راعىٰ الصائم فيه ما ينبغي مراعاته طبعًا وشرعًا، عظم انتفاع قلبه وبدنه به، وحبس عنه المواد الغريبة الفاسدة التي هو مستعد لها، وأزال المواد الرديئة الحاصلة بحسب كماله ونقصانه، ويحفظ الصائم مما ينبغي أن يتحفظ منه، ويعينه علىٰ قيامه بمقصود الصوم وسره وعلته الغائية، فإن القصد منه أمر آخر وراء ترك الطعام والشراب، وهو اجتماع القلب والهم علىٰ الله تعالىٰ، وتوفير قوىٰ النفس علىٰ محابه وطاعته)[1].

المقصد الخامس: تذكر الجائعين والمحتاجين. فإن الصائم يصيبه ما يصيبهم، إلا أنَّ الصائم يصيبه ذلك اختياراً، وهم يصيبهم اضطراراً، والصائم جوعه مؤقت، وينتهي عند غروب الشمس، بينما هؤلاء لا يتوقف جوعهم إلا حين

---

(١) زاد المعاد ٤/٣٠٧.

يجدون ما يطعمونه بطونهم.

وهذا التذكير مما يحتاج إليه الناس، فإن الغفلة تفشت في العالم المادي اليوم، وما أسرع ما ينسىٰ الناس مآسي إخوانهم، والشريعة لا تحب هذا النسيان، ولذلك فإنَّ جزءاً من العبادات تذكرنا بإخواننا الذين مستهم البأساء والضراء وزلزلوا، ومنها الصيام وزكاة الفطر.

وينبغي أن يتحول تذكر أحوالهم إلىٰ ترجمة عملية، من خلال شكر الله تعالىٰ علىٰ نعمته علينا أولاً، ودوام الثناء عليه والاعتراف بفضله وكرمه، ومن خلال بذل المعروف لهم وإغاثة ملهوفهم ونجدة منكوبهم والشعور بواجب الأخوة نحوهم ثانيـًا، ومن خلال الدعاء الدائم لهم في أوقات الإجابة أنْ يكون الله تعالىٰ لهم نصيراً وظهيراً، وأنْ يسد فاقتهم ويقضي حاجتهم ويؤمن خوفهم ويكسي عاريهم ويطعم جائعهم ويسقي ظمآنهم ويشفي مريضهم. وهذا -والله- هو النُبل الذي يصنعه رمضان في المتعبدين.

قال السعدي في حِكَم الصيام: (ومنها أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجبَ له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوىٰ)[1]. ونحن اليوم نرىٰ إخوة الإسلام في كثير من البقاع بحاجة إلىٰ دعائنا المستمر لهم، فهل نعجز عن ذلك؟

المقصد السادس: السموّ النفسي والكمالات الروحية المقترنة بالقرب من الله تعالىٰ وقوة الصلة به سبحانه. والمفترض أن يكون أول مقصد، لكن أحببت أن يكون آخرها ليكون وصولنا إليه مسبوقاً بما يدل عليه ويشير إليه، فإن الصيام بما فيه من المقاصد والعبادات تنقل النفس نقلة سماوية، وتحررها من جذبة الأرض وأثقال الدنيا وزخرفها، لأنه تَبَصَّر حقائق القرآن ونتائج الذكر والتفكر والتدبر، فإذا أبصرت الروح الحقائق هانت علىٰ النفس شؤون الدنيا وعلائقها. حتىٰ إنها لتذوق من العبادة والقرب من الله تعالىٰ ما هو ألذ لها وأطيب عيشاً.

قال ابن القيم: (النفس إذا حصل لها ما يشغلها من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ١/١٣٦.

محبوب أو مكروه أو مخوف اشتغلت به عن طلب الغذاء والشراب، فلا تحس بجوع ولا عطش، بل ولا حر ولا برد، بل تشتغل به عن الإحساس بالمؤلم الشديد الألم فلا تحس به. وما من أحد إلا وقد وجد في نفسه ذلك أو شيئًا منه. وإذا اشتغلت النفس بما دهمها وورد عليها لم تحس بألم الجوع.

فإن كان الوارد مفرحًا قويَّ التفريح قام لها مقام الغذاء، فشبعت به، وانتعشت قواها وتضاعفت، وجرت الدموية في الجسد حتىٰ تظهر في سطحه، فيشرق وجهه وتظهر دمويته. فإن الفرح يوجب انبساط دم القلب، فينبعث في العروق فتمتلئ به، فلا تطلب الأعضاء معلومها من الغذاء المعتاد، لاشتغالها بما هو أحب إليها وإلىٰ الطبيعة منه. والطبيعة إذا ظفرت بما تحب آثرته علىٰ ما هو دونه.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يواصل في الصيام الأيام ذوات العدد، وينهىٰ أصحابه عن الوصال، ويقول: «**لست كهيئتكم، إني أظل يطعمني ربي ويسقيني**». ومعلوم أن هذا الطعام والشراب ليس هو الطعام الذي يأكله

الإنسان بفمه)[١].

وقال ابن رجب عن حديث الوصال: (يشير إلىٰ أنه يستغني عن قوت جسده بما يمنحه الله من قوت روحه عند الخلوة به والأنس بذكره ومناجاته مما يورده علىٰ قلبه من المعارف القدسية والمواهب الإلهية.

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الطعام وتلهيها عن الزاد

واعلم أن عيش الجسد يفسد عيش الروح وينغصه، وأما عيش الروح فإنه يصلح عيش الجسد، وقد يغنيه عن كثير مما يحتاج إليه من عيشه، كان بالبصرة رجل من المجتهدين في الطاعة -وكان قليل الطعام وبدنه غير مهزول- فسئل عن سبب ذلك فقال: ذلك من فرحي بحب الله، إذا ذكرت أنه ربي وأنا عبده لم يمنع بدني أن يصلح)[٢].

هذه بعض المقاصد التربوية في شهر رمضان. وإذا

---

(١) زاد المعاد ٤/١٢٨.

(٢) لبيك اللهم لبيك ص٦٦.

تحققت في المؤمن -بأن يجتهد في تنميتها ومجاهدة النفس علىٰ تكميلها ما استطاع إلىٰ ذلك سبيلاً- يكون قد استفاد استفادة عظيمة، وحصل له التغيير الإيجابي المطلوب.

وهكذا يكون شهر رمضان محطة للتزود الإيماني والروحي اللازم، وهكذا يكون برنامجاً سنوياً للتربية الذاتية، وهكذا تتحقق به مقاصد الصيام التي لخصتها الآية بحصول التقوىٰ.

كان رمضانهم قرآنيا

في شهر رمضان من سنة ١٣٤٧هـ أَلَّف علامة القصيم الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالىٰ كتاب «**المواهب الربانية من الآيات القرآنية**» وفرغ منه في الثامن والعشرين من نفس الشهر.

وفي شهر رمضان من سنة ١٣٦٥هـ أَلَّف كتاب «**القواعد الحسان لتفسير القرآن**» وفرغ منه في السادس من شهر شوال.

وفي شهر رمضان من سنة ١٣٦٨هـ أَلَّف كتاب «**تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن**» وفرغ منه في ثالث العيد[١].

إن الاعتناء بالقرآن الكريم في شهر رمضان تلاوة وتدبراً

(١) انظر: الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة، ص٤٤.

ومدارسة ونحو ذلك من وجوه الاعتناء: سنة محكمة ثابتة عن نبينا ﷺ.

وقد مر بك حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة)[1]. وفي بعض الألفاظ: (يعرض عليه القرآن).

وهو متعلق بالاقتران الكبير بين شهر رمضان والقرآن في كتاب الله تعالىٰ، كما قد مر بك.

وقد سُئل الإمام عبد العزيز بن باز: ما الأفضل في رمضان: قراءة القرآن أو مراجعته أو حفظه؟ فأجاب رحمه الله:

(ينبغي لطالب العلم أن يجمع بين الأمرين: يقرأ القرآن ويُكثر من التلاوة، ويكون للحفظ نصيبٌ من الوقت وجزء من الوقت، ومراجعة ما يُشكل عليه بتدبُّرٍ؛ مراجعة التفاسير. حتىٰ

(١) البخاري (١٩٠٢) ومسلم (٢٣٠٨).

يجمع بين المصالح، فلا يشغله مراجعة التفسير أو حفظ ما تيسر منه، لا يشغله عن التلاوة، ولا تشغله التلاوةُ ومراجعة ما قد يُشكل عليه؛ لأنه فرصة، هذا الشهر الكريم فرصة -بلَّغنا الله وإياكم صيامه وقيامه إيمانًا واحتسابًا- فرصة لقراءة القرآن؛ ولهذا كان السلف يقبلون علىٰ القراءة، ويدعون الدروس وحلقات العلم. لكن من فوائد القراءة، ومن مصالح القراءة، ومما يُعين عليها: أن تراجع ما قد يُشكل عليك عند قراءة الآية من كتب التفسير، حتىٰ تجمع بين التلاوة والفهم والعلم، وإذا جعلت جزءًا من وقتك لحفظ ما تيسر من ذلك فهذا أمرٌ مطلوبٌ وحسنٌ؛ لأن الأوقات تُغتنم، وهذا وقت عظيم، فيه نشاط، وفيه فراغ للتلاوة والحفظ جميعًا)[1].

وفي حقيقة الأمر: هكذا كان الأئمة وأهل العلم يصنعون في رمضان؛ يعيشون مع آياته ومعانيه، فيفتح الله عليهم من الفهم والعلم والعمل أضعاف ما بذلوه له، وكانوا يرون في رمضان موسمًا لإحداث نقلة قرآنية فذة، حتىٰ أصبح هذا

---

(١) موقع الإمام ابن باز على شبكة الإنترنت.

الشهر حاضناً للكثير من المشاريع القرآنية الخاصة والعامة، كل بحسبه.

ففي باب الاستكثار من التلاوة ذكرت لنا كتب التراجم الكثير ممن كان يستكثر من تلاوة القرآن في شهر رمضان، كقول إبراهيم النخعي: (كان الأسود يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين، وكان ينام بين المغرب والعشاء، وكان يختم القرآن في غير رمضان في كل ست ليال)[١]. حتىٰ بلغ الحال بأبي حنيفة والشافعي أنهما وغيرهما كانوا يختمون القرآن في كل يوم من شهر رمضان مرتين[٢]. أي أنهم يختمون القرآن ستين مرة في شهر رمضان.

وقد كانوا -رحمهم الله- علىٰ تفاوت في مقدار التلاوة، غير أنهم جميعاً جعلوا من شهر رمضان فرصة لهذا العمل، ففرغوا أنفسهم لذلك، ومحوروا عيشهم في رمضان وفقاً لهذا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/٥١.

(٢) مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه، للذهبي ص٢٣، ومناقب الإمام الشافعي للبيهقي ١/٢٨٠.

المشروع، فمثلاً كان قتادة بن دعامة السدوسي يختم القرآن في سبع، وإذا جاء رمضان ختم في كل ثلاث، فإذا جاء العشر ختم كل ليلة[1].

وطائفة أخرىٰ أضافت إلىٰ الاستكثار من تلاوة القرآن عبادة أخرىٰ، وهي الصلاة، فجعلت شهر رمضان فرصة للاستكثار من قيام رمضان والاستكثار من قراءة القرآن في صلاتها، كما حكىٰ عمران بن حدير السدوسي عن أبي مجلز أنه كان يؤم بالحي في رمضان، وكان يختم في سبع[2].

وذكر الفقيه عز الدين عمر بن دهجان البصري المالكي أن أبا العباس أحمد بن سلمان الحربي المقرئ الملقب بالسكر كان يصلي التراويح كل ليلة بعشرة أجزاء من القرآن، فاذا كان النصف من رمضان صلىٰ كل ليلة بنصف الختمة، وكان ينصرف من صلاة التراويح وقد صعد المسحِّرون

(١) سير أعلام النبلاء ٥/٢٧٦.

(٢) سير السلف الصالحين ٣/٩٥٧.

المنارات[1].

ولعل بعضهم يضيف إلىٰ ذلك: اعتناءه بالتدبر والتأمل في كلام الرحمن، فتتفجر في قلبه المعاني والإشارات، فيعمد إلىٰ تقييدها وكتابتها ودراستها، قال المزني: (كان الشافعي إذا دخل شهر رمضان يقوم الليل يصلي، فإذا مرَّت به آية تصلح لباب من أبواب الفقه يرجع ويسلم، ويُسْرِجُ السّراج ويثبتها، ثم يطفئ السراج ويعود إلىٰ الصلاة، ثم يفعل ذلك في الليل مراراً كثيرة)[2].

وبعضهم يجعل من قيام رمضان وصلاة التراويح فرصة لتثبيت حفظه لكتاب الله، فيصلي بالناس إمامـًا، فيراجع القرآن ويثبت حفظه ويمتحن قدرته علىٰ استذكار آياته، وهذا معروف مشهور، قال ابن خزيمة: (استأذنتُ أبي في الخروج إلىٰ قتيبة، فقال: اقرأ القرآن أولاً حتىٰ آذن لك. فاستظهرت القرآن، فقال لي: امكث حتىٰ تصلي بالختمة. ففعلت، فلما عيّدْنا أذن لي

---

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب ٢/٧٦٤.

(٢) مناقب الشافعي ١/٢٤٤.

فخرجت إلىٰ مرو، وسمعت بمرو الروذ من محمد بن هشام)[1].

وبعضهم -كقتادة وغيره- يوجه نشاطه التعليمي في تدريس القرآن في شهر رمضان، أو يجتمع بطلابه لتلاوة القرآن ومدارسته كما فعل زبيد اليامي وغيره.

هذه نتف من أخبار الأئمة وأهل العلم والصالحين في جعل رمضان موسمًا قرآنيًا، تدلك علىٰ نظرة الصالحين إلىٰ شهر رمضان وكونه موسمًا قرآنيًا، وهو باب كبير من أبواب العلم والسلوك يستحق الجمع والدراسة.

وقد جزتُ بك إلىٰ الأئمة والعلماء من المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين، لتنظر في تنوع اجتهاداتهم في التعامل مع القرآن في رمضان، ولتنظر طرائقهم في النظر إلىٰ هدي النبي ﷺ في التعامل مع القرآن الكريم في رمضان.

وقد مر بك أن النبي ﷺ كان يدارس جبريل القرآن، وقد

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٤/٣٧١.

كانت هذه المدارسة فيها من الجهد ما فيها، من إثبات ناسخ وترتيب آيات وسور والإقراء بحروف العرب ونحو ذلك، فلما كان العام الأخير تمت «العرضة الأخيرة» المحكمة.

قال ابن كثير: (والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة: مقابلته علىٰ ما أوحاه إليه عن الله تعالىٰ، ليبقي ما بقي، ويذهب ما نسخ توكيداً، أو استثباتـاً وحفظا؛ ولهذا عرضه في السنة الأخيرة من عمره ﵇ علىٰ جبريل مرتين، وعارضه به جبريل كذلك؛ ولهذا فهم عليه السلام اقتراب أجله.

وعثمان ﵁ جمع المصحف الإمام علىٰ العرضة الأخيرة. وخص بذلك رمضان من بين الشهور؛ لأن ابتداء الإيحاء كان فيه؛ ولهذا يستحب دراسة القرآن وتكراره فيه، ومن ثم اجتهاد الأئمة فيه في تلاوة القرآن، كما تقدم ذكرنا لذلك)[١].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/٥١.

صائمون ولهم مشاريع قرآنية

مر بك -في ثنايا الحديث عن حال سلفنا وأئمتنا مع القرآن- عدد من المشاريع القرآنية في شهر رمضان، ولعله قد ساورك شيء من الإحباط والشعور بالعجز تجاه تلك القامات العالية، ولذلك أود أولاً أن أخبرك بأنه ينبغي لنا معرفة أحوالهم لا لنكون نسخة خالصة من أحدهم، فأكثرنا عاجز عن بلوغ تلك القمم الشاهقة، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

لكن شيئاً ما نستطيع أن نقتدي بهم فيه، وهو طريقة تفكيرهم في جعل شهر رمضان موسماً قرآنياً بامتياز، فهذا ما أردته: أن تفكر جدياً في كيفية استثمار هذا الموسم العظيم في إنعاش قلبك وعقلك بالقرآن، وفي إحداث نقلة إيمانية قرآنية في رمضان.

فاشحذ همتك واعقد نيتك وصحح عزيمتك، وإياك أن

تكون من المغبونين الذين يهل عليهم هلال رمضان، ثم يهل عليهم هلال شوال ولم تتفتق عقولهم عن معاني كلام الرحمن، ولم يتذوقوا حلاوة آيات الكتاب، ولم تزكُ نفوسهم بتوجيهاته، ولم يرِدوا ذلك المشرع الرِّوىٰ، ولم يصدروا عن سوقه بأجلِّ المغانم والصفقات. ودونك بعض الأفكار المستنبطة من فعل سلفنا الصالح، والتي يمكن تحويرها وتهذيبها ليتكون منها مشروعك الرمضاني القرآني، أملاً بأن يكون لك شفيعـًا وحجة عند الله تعالىٰ، وأن يكون بابـًا لك إلىٰ تحصيل التقوىٰ في رمضان، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣]. ونسأل الله من فضله.

۞ الاستكثار من تلاوة القرآن

حرص الأئمة والعلماء والصالحون علىٰ الاستكثار من تلاوة القرآن في نهار رمضان وليله، وإضافة إلىٰ ما مر بك من أحوالهم فإن الحافظ ابن رجب كذلك حكىٰ بعض أحوالهم في هذا الباب، قال: (قال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا دخل

رمضان يفرُّ من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم وأقبل علىٰ تلاوة القرآن من المصحف.

وقال عبد الرزاق: كان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل علىٰ قراءة القرآن.

وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ في المصحف أول النهار في شهر رمضان، فإذا طلعت الشمس نامت. وقال سفيان: كان زبيد اليامي إذا حضر رمضان أحضر المصاحف وجمع إليه أصحابه).

ثم قال معقِّبـًا علىٰ ذلك تعقيبـًا مهمـًا: (وإنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث علىٰ المداومة علىٰ ذلك، **فأما في الأوقات المفضلة كشهر رمضان، خصوصـًا الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر أو في الأماكن المفضلة كمكة لمن دخلها من غير أهلها؛ فيستحب الإكثار فيها من تلاوة القرآن اغتنامـًا للزمان والمكان**، وهو قول أحمد وإسحاق وغيرهما من

الأئمة، وعليه يدل عمل غيرهم كما سبق ذكره)[1].

ومعنىٰ كونه مشروعـًا لك في رمضان: أن تجعل لك هدفـًا محدداً من الختمات في رمضان أولاً، تفوق عادتك في غيره من الشهور، وأن تلزم نفسك وتركز جهد في تحقيقه ثانيـًا.

۞ الصلاة بالقرآن

والمقصود أن يكون لك وِرد تقرؤه في صلاتك، مستكثراً فيه من القراءة، عن جابر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الصلاة طول القنوت**»[2]. أي طول القيام، قال ابن عمر: ما نعلم القنوت إلا طول القيام وقراءة القرآن[3].

وإذا كان مشروعك في رمضان الصلاة بالقرآن فيعني أنك لا تكتفي بصلاتك التراويح خلف الإمام، فتعمد إلىٰ المزيد من الركعات قبلها أو بعدها أو في آناء الليل وأطراف النهار.

---

(١) لطائف المعارف ص٣١٨.

(٢) مسلم (٧٥٦).

(٣) فتح الباري لابن رجب ٩/١٩٥.

والأصل فيه أن تكون صلاتك بالقرآن من محفوظك، وربما تطلَّب ذلك مراجعة جيدة، ويمكن قراءة القرآن في الصلاة بالمصحف لمن لم يكن حافظاً، وهذا مروي عن عائشة رضي الله عنها، فقد أخرج البخاري تعليقاً أنها كانت تأتمُّ بعبدها ذكوان من المصحف[1].

ومعنىٰ جعله مشروعاً لك في رمضان: أن تجعل لك هدفاً محدداً من الركعات يومياً، ثم تلتزم بها، وتلتزم بما فيها من المقدار القرآني، حتىٰ دخول العشر الأخير، فإذا دخلت العشر الأواخر من رمضان ضاعفت جهدك وزدت من الركعات، وزدت من مقدار التلاوة.

❁ دراسة معاني القرآن وتدبره

وهو مشروع عظيم، لأن فهم كلام الرحمن من أعظم الغايات وأجلِّ الأعطيات، ويكون ذلك بقراءة كتاب أو أكثر في تفسير القرآن وبيان معانيه، بحسب مستواك العلمي، وكذلك

---

(١) ج١/٦٢٩، باب إمامة العبد والمولى.

بحسب خبرتك في قراءة كتب التفسير.

والمبتدئ الذي لم يسبق له ذلك يفضَّل له أن يقرأ المختصرات المطبوعة علىٰ هامش المصحف، مثل «**التفسير الميسر**» الصادر عن مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، أو «**المختصر في التفسير**» الصادر عن مركز تفسير للدراسات القرآنية. فيقرأ الصائم الآية ويقرأ معناها، متأملاً متمعنـًا، ثم يربط بين المعاني في الصفحة الواحدة والصفحتين، وهلم جرا، ثم يتأمل ما فيها من الحكم والأحكام، ومن صفات الله وأسمائه وأفعاله، وما فيها من القصص والعبر والتوجيهات.

وكثيرون يختمون القرآن كاملاً في رمضان بهذه الطريقة قديمـًا وحديثـًا.

ومن الجيد أن يكون ذلك في مصحفه الخاص به، وأن يستخدم القلم والكتابة لتعينه علىٰ القراءة الجيدة.

وبعض التلَّائين يكتب علىٰ مصحفه الخاص به، وهذا لا

بأس به علىٰ الراجح من أقوال العلماء، وذلك لأنه خاص به، ولأن خطه لا يمكن أن يختلط بخط الطباعة الحديثة فيلتبس، وحبذا لو أشار إلىٰ ذلك في أول المصحف.

ومشروع التفهم والتدبر لا يشترط فيه أن يكون لجميع سور القرآن، إلا لمن أطاق ذلك، وهذا فضل الله، وفضل الله عظيم. فيمكن أن يكون هدفك في رمضان لهذا العام جزءاً أو جزئين من القرآن، أو سورة مثل سورة البقرة أو آل عمران أو يوسف أو الكهف أو النور، ونحو ذلك، وعليه فإنه يستحسن أن تضيف إلىٰ التفسير المختصر كتاباً آخر أو أكثر.

ومن الكتب المقترحة لذلك: «**تيسير الكريم الرحمن**» للعلامة السعدي، وكتاب «**تفسير القرآن العظيم**» للحافظ ابن كثير، فإن كنت ذا دربة ودراية بكتب التفسير فيمكن أن تضيف إلىٰ ذلك ما تشاء من كتب التفسير المعتمدة عند أهل العلم.

ويمكن أيضاً أن يتم مشروع التفهم والتدبر مع مجموعة من الأصحاب، يجلسون ويتدارسون كتاب الله تعالىٰ، وفق

خطة تحقق مقصودهم.

وحين نذكر التدبر فأشير إلىٰ أن التدبر عملية عقلية تعالج النص القرآني الذي فهمت معناه، فلا يكون تدبر إلا بعد الفهم، لذلك فإن كتب التفسير تعد بوابة للتدبر.

ومعنىٰ جعله مشروعًا لك في رمضان: أن تجعل لك هدفًا محدداً من السور والأجزاء، أو تجعل لك هدفًا محدداً من كتب التفسير، وتصب جل اهتمامك بمطالعتها ودراستها، وفق خطة معقولة. وستجد نفسك عند انسلاخ الشهر وقد ارتقيت في مدارج الفهم، وتدربت علىٰ التدبر والرجوع إلىٰ كتب التفسير والعيش مع القرآن. وهذا نجاح وأيُّ نجاح.

❁ مراجعة القرآن

والمقصود مراجعة ما تحفظه من القرآن، وإتقانه إن كنت من الحفاظ، وذلك بأن يستهدف مراجعة القرآن كاملاً أو بعض أجزائه. لا شك أن كثيراً من الحفاظ لديهم برنامجهم المعتاد -في رمضان وفي غيره- لمراجعة كتاب الله، ومستقل ومستكثر،

لكن شهر رمضان يعدُّ فرصة للإتقان، وموسماً للمراجعة، وهم المقصودون بهذا الطرح.

والمقترح لمن سبق له إتمام حفظ القرآن، **وليس له برنامج ثابت للمراجعة** أن يراجع ما لا يقل عن خمسة أجزاء، مراجعة إتقان وإجادة، وليست مراجعة رخوة.

ومن أفضل ما يثبت حفظ القرآن: الصلاة به، فيكون عمل المراجع يتراوح بين إعادة الحفظ، والتسميع علىٰ مقرئ، والاستماع للوسائط الصوتية، والصلاة بما حفظه، خاصة في العشر الأواخر.

وأقوىٰ من ذلك: أن يؤم المصلين لصلاة التراويح والقيام من حفظه، فإنه هذا يجعله يركز علىٰ المراجعة والإتقان. ويستطيع -من خلال الإمامة- أن يراجع عشرة أجزاء علىٰ الأقل في شهر رمضان، وبعض الحفاظ يصلي بنصف القرآن، وبعضهم يصلي بالقرآن كاملاً، فيا لهذا الفوز والنجاح!

وقد قال إسماعيل بن عبد الملك: (كان سعيد بن جبير

يؤمُّنا في شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود وليلة بقراءة زيد بن ثابت وليلة بقراءة غيره، هكذا أبداً)[1].

ومعنىٰ جعل ذلك مشروعـاً لك في رمضان: أن تجعل لك هدفـاً محدداً من كتاب الله، ثم تحدد الوسيلة المناسبة، واحرص علىٰ أن تؤم المصلين، فإنه باب كبير في إتقان المحفوظ وإصلاح النفس؛ لما يستلزمه من تفرغ وتركيز وبعد عن الملهيات والعلائق.

❁ مدارسة القرآن

ومدارسة القرآن اجتماعٌ علىٰ كتاب الله قراءة وتسميعـاً ومراجعة وتعليمـاً وتفقهـاً وتزكية، وتتطلب رأسـاً لهذا الاجتماع، فيعمدون إلىٰ كتاب الله تعالىٰ أو أجزاء منه فيتدارسونها بينهم، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله؛ يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة،**

---

(١) وفيات الأعيان ٢/٣٧١.

وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1]. وكما تكون المدارسة في مكان واحد وبطريقة مباشرة في المساجد والبيوت، كذلك يمكن أن تكون المدارسة «عن بعد» عن طريق تطبيقات التواصل الاجتماعي المتنوعة.

وكما تكون المدارسة في كتاب الله تعالىٰ، كذلك يمكن أن تكون في التفسير أو علوم القرآن، أو أصول التفسير، أو في الكتب التي تتناول سوراً أو موضوعات قرآنية تحليلية.

ومدارسة القرآن في رمضان هي عين ما فعله النبي ﷺ وجبريل، في حديث ابن عباس السابق ذكره.

ومعنىٰ جعل ذلك مشروعـًا لك في رمضان: أن تصنع برنامجـًا قرآنيـًا جماعيـًا تجعل له هدفـًا محدداً من كتاب الله، أو من الكتب القرآنية، ونقاط المدارسة، وطريقة لإدارتها. ثم تركز علىٰ هذا العمل.

---

(١) مسلم (٢٦٩٩).

الاعتكاف
سياحة في عالم الحقائق والجمال

يدأب المؤمنون في رمضان صومـًا وصلاة وصدقة وتلاوة ودعاء، عشرين يومـًا وليلة، تمهيداً لدخول الباحات العظيمة في العشر الأخير من رمضان، فإذا قدمت تلك العشر الأواخر أذن الله تعالىٰ وتقدس بالدخول عليه من باب الاعتكاف.

عن عبد الله بن عمر وعائشة ﵃ قالا: (كان رسول الله ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان)[١]. والاعتكاف هو المكث في المسجد ليالي العشر الأواخر وأيامها، والانقطاع فيه للعبادة من صلاة وصيام وتلاوة ودعاء وذكر وتفكر، وقال ابن رجب: (معنىٰ الاعتكاف وحقيقته قطع العلائق عن الخلائق للاتصال بخدمة الخالق، وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له والأنس به؛ أورثت صاحبها الانقطاع إلىٰ الله تعالىٰ

(١) البخاري (٢٠٣٥، ٢٠٣٦) مسلم (١١٧١، ١١٧٢).

بالكلية علىٰ كل حال)[1].

فالمعتكف حقًا هو ذلك المستشعر لعبوديته، وأنه في ضيافة الرحمن في بيته، وأنه أقبل إليه للخلوة به، فلا ينشغل بأي شيء من علائق الدنيا عن ربه ومولاه، وتجد وقته محشواً بالتنسك والمناجاة، المناجاة مع الله دعاء وذكراً وتفكراً وقراءة وصلاة، يتنقل بينها من روضة إلىٰ روضة، فذلك النعيم وتلكم الجنة.

منازلُ لو أن امرأ القيس حلَّها   لأقْصرَ عن ذكرىٰ حبيبٍ ومنزلِ

والمعتكف يقسم وقته بين أنواع العبادات، ويحاسب نفسه علىٰ الدقائق والساعات، ويتقلل من النوم والطعام، ويسوس نفسه حتىٰ يظفر بأعز الغنائم وأحسن الهبات والأعطيات في هذه العشر المباركات.

فلله أعبدٌ وإماءٌ خلعوا كل علائق الدنيا، وأماطوا عن طريقهم إلىٰ الله تعالىٰ كل عوائق السير إليه؛ من ذنوب وآثام

---

(١) لطائف المعارف ص٤٣٩.

وترفُّه وانبساط، ويمَّموا قلوبهم إلىٰ السماء، ووجهوا وجوههم إلىٰ المساجد، يتلمسون فيها زاوية نائية، مصطحبون مصحفاً ووسادة وغطاء، يلتمسون ليلة القدر، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾ [القدر: ١-٥].

لله هؤلاء الأفذاذ، الذين لزموا بيت الله تعالىٰ عشر ليالي، لا شغل لهم سوىٰ مناجاة الله والحديث معه والفرح بقربه.

إن كان رضاكم في سهري فســــلام الله علىٰ وَسَني

والاعتكاف الموفي لمعناه وحقيقته يطهر النفس من أدران الشهوات، فيصقلها بعد أن كان صدأ الشهوات متراكماً عليها، ذلك أن دموع التوبة الحارة تذيب ذلك الصدأ حتىٰ تجليه بالكلية، فيخرج المعتكف صبيحة العيد بنفس زاكية، فتالله لهو من أحق الناس بفرحة العيد.

والاعتكاف الموفي لمعناه وحقيقته يوقد في القلب نور

الإيمان، لكثرة ما قرأ من القرآن، ولكثرة ما أنصت إلىٰ الإمام في صلاة التهجد والقيام، حتىٰ أصبح صدره كمشكاة فيها مصباح، يشع نوراً في كافة جسده، ويظهر علىٰ وجهه ومنطقه، ويستنير به عقله ووجدانه، فتتصحح لديه المفاهيم ويدرك الحقائق علىٰ صورتها الصحيحة، إذ إن القلب المظلم بكثرة المعاصي والآثام تحجبه تلك الظلمة والسواد عن رؤية الحقائق وإدراكها، فلما استنار وأضاء وانقشعت تلك الظلمة والأغطية؛ أبصر الطريق إلىٰ الله وعرفه جيداً.

الافتقار تذكرة القبول

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله أرأيت إن علمتُ أي ليلةٍ ليلةُ القدر، ما أقول فيها؟ قال: «**قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني**»[١].

إن أجلَّ مطلوب هو عفو الله تعالىٰ ومغفرته ورضاه، لأن الإنسان في حياته لا يسلم من الوقوع في الأخطاء والزلل، كما

---

(١) أحمد (٢٥٣٨٤) والترمذي (٢٥١٣) وقال: حسن صحيح.

جاء في حديث يحسنّه بعض أهل الحديث، عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**كل ابن آدم خطَّاء، وخير الخطَّائين التوابون**»[1].

والافتقار إلىٰ الله شعور بالعجز عن السير إلىٰ الله إلا بمعونته، واعتراف بالخطأ والتقصير واقتراف الذنوب بين يدي الله، وثناء علىٰ الله تعالىٰ بما هو أهله من العظمة والقدوسية والجلال والكمال، ونبينا ﷺ يربينا علىٰ دوام هذا الافتقار، ومن ذلك إرشاده إلىٰ أن سيد الاستغفار هو الدعاء المتضمن لخضوع الداعي وشعوره بالضعف والعبودية والذل بين يدي إلهٍ قوي عظيم وربٍ رحيم كريم، فعن شداد بن أوس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا علىٰ عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها**

---

(١) الترمذي (٢٤٩٩) وابن ماجه (٤٢٥١) والحاكم (٧٨٠٩). انظر: صحيح الترغيب والترهيب (٣١٣٩).

من النهار موقنا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»[1] . فتأمل تسميته للدعاء المتضمن اعترافًا بالذنب وخضوعًا افتقاراً لمن اتصف بالربوبية والخلق وإسداء النعم ومغفرة الذنوب: «سيد الاستغفار».

وحين سأله سيد الناس بعده ﷺ، أعني أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يعلمه دعاء يقوله في صلاته، علمه دعاء يفتقر فيه إلىٰ الله تعالىٰ ويعترف فيه بذنوبه وظلمه وبخضوعه وذله بين يديه، ويقر فيه بأن الله تعالىٰ هو الغافر للذنوب الرحيم بعباده، قال أبو بكر رضي الله عنه: علِّمْني دعاءً أدعو به في صلاتي، فقال رسول الله ﷺ: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[2].

فتأمل ما الذي علَّمه نبينا ﷺ صاحبه ووزيره وأحب الناس

---

(١) البخاري (٦١٣٤).

(٢) البخاري (٨٤٣).

إليه، وأعظم الناس إيمانـًا وأصدقه بعد نبينا ﷺ ! علَّمه الاستغفار وطلب العفو والمغفرة والاعتراف بظلم النفس بين يدي الله تعالىٰ.

والافتقار إلىٰ الله تعالىٰ يتضمن الاعتراف بالقلب وليس فقط باللسان، فيعترف الانسان بقلبه فينطق بلسانه، فيقول: «أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي» يعني أعترف يا ربي أنني مخطئ، أنني مذنب، أنني مقصر في الطاعات، أنني لم أحمدك حق الحمد، ولم أعبدك حق العبادة، ولم أَقدُرك حق القدر، اعترف يا ربي أنني عاجز، وأنني فقير، وأنني ضعيف.

هذا الاعتراف والانكسار من أعظم محبوبات الله سبحانه وتعالىٰ، لأن الإنسان إذا غفل يتعاظم في نفسه، والنفس البشرية هكذا؛ يصيبها التعاظم والكبرياء والعلو والاستعلاء، قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦-٧]. فيحب الله سبحانه وتعالىٰ من عبده أن يَعرِف قدر نفسه أمام مولاه سبحانه وتعالىٰ. قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ

جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

يا رب عبــدك قد أتـــا ك وقد أســـاء وقد هفا
يكفيــه منك حيــــاؤه من ســوء ما قد أسلفـا
حمل الذنوب علىٰ الذنو ب الموبقــــات وأسرفا
وقد استجـــار بذيل عفـ ـوك من عقابك ملحفـا
يـــا رب فاعف وعـــافه فلأنت أولىٰ من عفــــا

إدارة الاعتكاف

لتفوز في اعتكافك، ولتقوىٰ صلتك بالله تعالىٰ، ولتحسن علاقتك بالقرآن، ولتفهم عن الله كلامه وخطابه، وليرقَّ قلبك ولتدوم خشيتك ولتبلغ درجة الإحسان، ولتظفر بالسياحة في عالم الحقائق والجمال.. عليك بإدارة وقت الاعتكاف إدارة حسنة ذكية، تحفظ فيها وقتك، وتقسم يومك وليلك في الطاعات، فكم جزءاً ستقرأ في النهار؟ وكم جزءاً ستقرأ في الليل؟ وكم عدد الصفحات التي ستقرؤها في صلاتك بالليل والنهار؟ ومتىٰ يبدأ وردك من الدعاء؟ وما هي ساعاته؟ وكم

وقت الطعام والنوم؟ وكيف ستكون علاقتك بأصحابك وجيرانك في الاعتكاف؟

كل هذا في غاية الأهمية؟ حتىٰ لا يكون وقتك ضياعـًا، وحتىٰ لا تكون ساعات اعتكافك نُهبة في أيدي البطالين، وحتىٰ لا يكون المسجد فندقـًا للاستراحة والنوم والطعام والشراب.

وإياك واعتكاف اللاعبين اللاهين، فإنها ساعات محدودة وأيام معدودة ويظفر كل عامل بما قدَّم.

وإذا عرفت من نفسك أنك لا تستطيع أن تكون قادراً علىٰ ضبط نفسك في الاعتكاف طيلة العشر الأواخر، وبانت لك حقيقة ما انطوت عليه نفسك من ضعف الإرادة وخور العزيمة واثقلتك الخطايا والآثام عن بلوغ هذه المنازل، ثم أردت الاعتكاف؛ فاعتكف بعض الليالي، ونافس فيها أصحاب العزائم، فربما رأىٰ الله تعالىٰ من قلبك صدقـًا وانكساراً فمنحك عفوه ورحمته، وأعطاك سؤلك وبُغيتك، قال تعالىٰ:

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ

ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ [الزُّمَر: ٥٣]. وهذا خير من اعتكاف العشر مع اللهو واللعب وربما مع الذنوب والمعاصي، عافاك الله.

رمضان شهرك الأول

والمقصود من تربية الإنسان لنفسه في رمضان: تحصيل التقوىٰ واستعادة المنزلة التي تليق بكتاب الله في نفسك ومجتمعك، فرمضان شهر استعادة القرآن إلىٰ مكانته في هداية النفوس وترقيق القلوب وتزكية الأرواح.

إن الله عز وجل منحنا في كل عام شهراً نروض نفوسنا فيه بأنواع العبادات، ليكون رمضان منطلقًا لنا فيما بعد من الشهور؛ في الاستقامة وحسن التعامل مع كتابه العزيز، ولذلك ينبغي ألا ينسلخ الشهر إلا بنجاحات قرآنية قد تحققت فيه، وعزائم صادقة للاعتصام به وتعهده وحفظه وفهمه والعمل به.

رمضان شهرك الأول في إصلاح علاقتك بكلام الرحمن، في الاعتناء به وبأحكامه وتوجيهاته، فإذا انسلخ الشهر ولم تأخذ نصيبك من كتاب الله تعالىٰ سماعًا وتلاوة وتعلمًا

ومدارسة وتطبيقـًا وتنزيلاً.. فمتىٰ يكون ذلك؟

ورمضان شهرك الأول في افتقارك إلىٰ الله ومعرفتك بنفسك وبخالقك، والانطراح بين يديه معترفـًا بخطيئتك آملاً بعفوه ورحمته.

إن السنين تطوىٰ، وإن الأعمار تنقضي، ولا يزال كثيرون يسوِّفون، ويؤخرون القرآن عن أولويات اهتمامهم؛ فلا تدري لعل الله كره انبعاثهم فثبطهم! لأن كتاب الله عزيز، ويتطلب عزائم صدق، نسأل الله أن يزكي نفوسنا ويؤتيها تقواها. ولا يزال كثيرون يؤخرون التوبة ولا يعترفون بذنوبهم ولا تنكسر نفوسهم بين يدي الله تعالىٰ، فلماذا الشرود عن الله تعالىٰ وهو الداعي، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن، وغلقت أبواب النار، فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة، فلم يغلق منها باب، وينادي مناد: يا باغي الخير أقبِلْ، ويا باغي الشر**

أقصِرْ، ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة»[1].

واجعل من توبتك في رمضان: إصلاح علاقتك بالقرآن، إصلاحًا حقيقيًا، واستعادته في أولويات اهتمامك، واجعله قائدك ومربيك ومرشدك، لا سيما في عصور الفتن والمدلهمات، واختلاط الثقافات والمجتمعات.

إشكالية العيد

إذا أردت أن يكون رمضان شهرك الأول فانتبه لإشكالية العيد! ذلك أننا -أو بعضنا- أوهمنا أنفسنا بأن الفرح بالعيد يقتضي ضياع الأوقات والإفراط في اللهو والانقطاع عن النوافل والطاعات وقراءة القرآن ولزوم المسجد وقيام الليل، ونحو ذلك، والشيطان لا يقول لك: دع النوافل ودع قيام الليل ونحو هذا، وإنما يقول لك كلامًا مفهومًا تعرفه ولا تنكره، وهذه خدعة إبليس الأولىٰ بعد رمضان، ليقطعك عن لذة العبادات، وليكسر في نفسك خط العبادة الصاعد، لتبدأ في

---

(١) الترمذي (٦٨٢) وابن ماجه (١٦٤٢) المستدرك (١٥٤٦).

روحك ووجدانك مسالك الهبوط، ثم إذا أردت العودة إلىٰ خطك الإيماني الذي سِرت فيه بالأمس القريب وجدته صعب المنال وثقلت خطواتك عن السير فيه؛ فأعادك الشيطان إلىٰ المربع الأول: ما قبل رمضان.

وانظر إلىٰ سيرة النبي ﷺ وأصحابه: هل كانوا يقيمون هذه المناسبات المبالَغ فيها والاحتفالات المتكررة بعد رمضان؟ لن تجد ذلك، أبداً.

بل ورد حديث يدل علىٰ ما أدعوك إليه من الاتزان النفسي والإيماني والمفاهيمي في يوم العيد نفسه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحىٰ أو فطر إلىٰ المصلىٰ، فمر علىٰ النساء، فقال: «**يا معشر النساء، تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار**». فقلن: وبمَ يا رسول الله؟ قال: «**تكثرن اللعن، وتكفرن العشير**» الحديث[1]. فلاحظ أن رسول الله ﷺ وهو في أول نهار العيد يخوف الناس من عذاب الله! مما يدلك علىٰ أن الفرح بالعيد وبإتمام نعمة الله تعالىٰ علىٰ الصائمين لا

---

(١) البخاري (٣٠٨).

يلزم منه سلْخ الروح من التحليق في معاني الإيمان، فلذلك احذر من مزالق الشيطان في العيد، وافرح بقصد وباتزان دون إفراط أو تفريط، واحذر من السقوط في فخ المناسبات والاحتفالات المبالَغ التي تسرق منك روحك وأَلقك، واحترِسْ من خفوت الوهج القرآني في روحك.. **تشبث بجوائز رمضان في نفسك وروحك، وإياك أن تفرط فيها.**

اللهم بلغنا شهر رمضان، واجعلنا فيه من عتقائك من النار، اللهم هذب به نفوسنا، وزد به إيماننا وكفِّر به سيئاتنا، ونور بقرآنه قلوبنا، وارفع بأعماله درجاتنا، اللهم بلغنا خواتمه ونوِّلنا مغانمه وامنحنا جوائزه، وجنبنا مزالقه.

ربنا اغفر لنا ولوالِدينا، وارحمهم كما ربَّونا صِغاراً. آمين.

انتهىٰ ولله الحمد

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ عبده ورسوله محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

رمضان

تربية الإنسان واستعادة القرآن

فايز بن سعيد الزهراني